بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الفاتح الخاتم وعلى آله

عنوان المحاضرة

الإشعاع الروحي للزاوية التجانية في بلاد شنقيط وما تاخمها من بلاد السودان

إعداد الدكتور:

محمد الحنفي محمد المختار دهاه

منسق وحدة التصوف بقسم الفلسفة

/ كلية الآداب/

جامعة انواكشوط

الحمد لله الذي تجلى لخلقه في عجائب صنعه، واحتجب عنهم بسرادقات كمالات هويته. وتفرد بوجوب الوجود فهو الأزلي الأبدي في قيوميته، وتوحد بالإيجاد فكل الأكوان خاضعة لجلال هيبته، وتنـــزه عن الشريك والشبيه فهو الواحد الأحد في ألهيته، استخلص العلماء والصلحاء بمواهب عنايته، فأطلع شموس العلوم في آفاق نهارهم فأشرقت على كافة الأرواح بآثار رحمته، وأينعت رياض الأشباح بثمرات المعارف فأضحت جالية بجميل طاعته، فهم السامعون لتفاصيل مناجاته، والحاملون لأعباء رسالاته، والعاملون بمحاسن مشروعاته، والهائمون بجمال صفاته، والفانون عن الأكوان بملاحظات بهائه ومراداته.

ونحن الضارعون بضعفنا لجلاله، والمبتهلون بنقصنا لكماله أن يفيض علينا كما أفاض عليهم من نعمه.

وأفضل الصلوات وأزكى التسليمات على أفضل الصادرين عن قدرته، محمد المبعوث بأفضل الرسائل وأقرب الوسائل إلى دار كرامته، الجامع بين ذروة مكارم الأخلاق وخلاصة شرف الأعراق في حوزته، وعلى آله وصحبه الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

السادة العلماء والمشائخ

السادة الحضور الكرام

بادئ ذي بدء أرى ضرورة الإشادة بالتقاليد العلمية الراسخة التي أرسى ملوك العلويين وخاصة الدروس الحسنية التي استـــن المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، فكانت منار هدى ومدد علم استفاد منه الكثيرون. ثم تابعها بجدارة إبنه جلالة الملك محمد السادس أعزه الله ونصره وقر عينيه بولي عهده سمو الأمير مولاي الحسن وبكافة أفراد الأسرة المالكة.

مليك له آباؤه الغر خلفوا ... مطارف ملـــك تالـــدات ضـــوافيا
ملوك بنـــوا قصـــر العدالـــة فاســـتوى ... على أسس التقـــوى متينـــا مبانيـــا
فمن واحد يقفوه ثان وثالث وثالـــث ... إلى خامس الأقطاب لـــيس مـــدانيا
إلى سادس لوقلت ليس كمثله كمثله ... مليك من الماضـــين لســـت مغاليـــا

ولا يسعنى إلا أن أشيد بدور وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكبير فى النهوض بالرسالة الدينية والعلمية التى حملها إياهم جلالة الملك محمد السادس. ولاشك أنها حمل هو "أشد وطأ وأقوم قيلا". فهنيئا لها على التوفيق لما انتدبت له ونرجوا لها مزيدا من الفتوحات والإنجازات تحت الرعاية السامية لأمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس.

يكلـــف ســـيف الدولـــة الجـــيش همـــه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم الخضارم
ويطلب عنـــد النـــاس مـــا عنـــد نفســـه وذالـــك مـــا لا تدعيـــه الضـــراغم

ثم إننى سأشرع فى إلقاء هذا العرض الذى يتعلق بموضوع علمي كبير ومهم، ولكنه أيضا روحي بالغ الوقع فى النفوس وهو إشعاع زاوية الشيخ سيدي أحمد التجانى رضي الله عنه فى البلدان الواقعة جنوب المملكة المغربية كبلاد شنقيط وما تاخمها من بلاد السودان.

فأقول :

إن الكلام عن الطريقة التجانية أو عن التصوف عموما حديث ذو شجون خاصة في بلاد شنقيط التي عرفت نقصا كبيرا في التوثيق والتدوين، وهذا ما يقتضي منا الرجوع حتما إلى تاريخ دخول الإسلام في هذا القطر.

فمن البين أن هذه البلاد انتظمت في سلك دار الإسلام منذ القرن الثاني الهجري كما تواترت بذلك الأخبار، إلا أن هذا الدين الجديد على السكان لم يأخذ مداه الحقيقي الذي قر عليه إلى اليوم إلا مع حركة المرابطين في بحر القرن الخامس الهجري. وبموجب هذا الوضع الديني الجديد أصبحت هذه البلاد جزءا عضويا من دار الإسلام تتأثر بما يدور في أي نقطة منها سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الاجتماعي أو الروحي أو الفكري.

لهذا يمكن أن نقول إن الإسلام أثيل وضارب الجذور في هذه المنطقة قر على ما هو عليه الآن منذ العهد المرابطي إسلاما سنيا يجمع بين العقد الأشعري والفقه المالكي والطريقة الصوفية الجنيدية.

وإذا كنا لا نملك معلومات كافية عن حالة التصوف خلال الفترة السابقة للقرن العاشر الهجري فإننا نستطيع تبين بعض ملامحه من خلال ما يرد في التاريخ من ذكر للأولياء والصالحين وأصحاب الخوارق والكرامات، وما يروى من أخبار الزهاد والمتعبدة ممن كانوا قبل القرن العاشر الهجري، هذا بالإضافة إلى ما نعرف عن الغرب الإسلامي عموما والمغرب الأقصى بالخصوص من كثرة الأولياء والمتصوفة وانتشار طرقهم واجتماع الناس عليهم.

أما التصوف في بعده الطرقي فقد جاء متأخرا نسبيا في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الهجري مع تلامذة الإمام زروق والإمام السيوطي والإمام محمد بن ناصر الدرعي.

وما إن أطل القرن الثالث عشر الهجري حتى جاءت طريقة شيخنا وإمامنا وممدنا العارف الرباني والقطب المكتوم والوارث المحمدي المعلوم سيدي أبي العباس أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه وأرضاه ومتعنا وسائر الأحبة برضاه، الذي جاء في أساليب الدلالة على الله بما لم يسبق إليه، وأتى في مسالك التربية والترقية بما لم يعرج أحد عليه، لبلوغه رضي الله عنه وأرضاه أقصى درجات الكمال في الجمع بين العلم والحال، والهمة والمقال، فأسست طريقته على تقوى من الله ورضوان، وشيدت من العلمين الظاهر والباطن على أقوم القواعد والأركان. ومدار دلالته رضي الله عنه على كمال تعلق القلب بالله تعالى وعلى ما يوصل إليه، وكلامه في رسائله وأجوبته طافح من ذالك بما يبهر العقول.

وإعطاؤكم ترجمة للشيخ التجاني رضي الله عنه يبدو من باب استبضاع التمر إلى أرض هجر، فأنتم أعلام الطريقة ومريدوها أدرى بتلك الأمور وأوفر حظا من تلك المعارف وأمضى سلاحا في تلك المنازلات وترجماته كثيرة ومستفيضة سواء في

طبقات الفقهاء أو في طبقات مشائخ التصوف. ولكن لابد أن أنبه إلى أنه لم يتأخر عنه أحد أو عاصره إلا وترجم له.

دخول الطريقة التجانية إلى بلاد شنقيط:

اتصل بالشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه بفاس خمسة من الشناقطة نشروا هذه الطريقة وإن بدرجات متفاوتة، ولقد انجر عن ذلك أن أصبحت هذه الطريقة في أواخر القرن الثالث عشر ضاربة بجرانها في عموم هذه البلاد ثم ما إن انتصف القرن الرابع عشر حتى أضحت أهم طريقة صوفية تنتظم الناس من حيث الكم والكيف.

وهؤلاء الرجال الخمسة هم:

1-العالم العلامة أبوزيد سيدي عبد الرحمن الشنقيطي:

قال عنه سيدي العربي بن السائح : كان إماما جليلا في سائر العلوم وكان يدرس بفاس العليا وكان جميع نجباء وقته يسيرون من فاس الإدريسية على أرجلهم لحضور مجلسه وتخرج على يده جماعة حسبما هو مصرح به في بعض الفهارس توفي رحمه الله سنة 1224هـ ودفن بفاس العليا . كشف الحجاب 366-368

2- أحمد سالم بن الإمام الوداني:

قال عنه في كشف الحجاب /365 ومنهم العالم العامل والعارف الواصل أبوالعباس أحمد سالم الوداني...:" أخذ عن الشيخ صحبة أخيه السالك الآتي الذكر وترافقا إلى الحج وتوفي صاحب الترجمة بالحرم الشريف ورجع أخوه إلى ودان. وهو صاحب الأبيات التي مطلعها :

إلى أحمـــد التجـــاني وجهـــت رغـــبتي وما ضاق من أمري وما قل مـــن صـــبري

انظر ترجمته في المجموعة الكبرى 46/2 ترجمة 92.

3- السالك بن الإمام الوداني: قال عنه في منية المريد

وكـــم إمـــام عـــالم علامـــه نقـــادة دراكـــة فهامـــه

مـــن ورد شـــيخنا الإمـــام قـــد ورد حـــتى تضـــلع وفـــاز بالمـــدد

كترجمـــان العلـــم و القـــرءان الســـالك العلامـــة الـــوداني

توفي رحمه الله سنة 1245هـ ودفن بودان. وما زال سنده قائما لحد الساعة فقد أخذ عنه أحمد طهرا (سوفه) وهذا أخذ عنه الشريف محمد مختار (خاي) وعن هذا أخذ جماعة من بينهم تيرنو هامي بابا (تيلون) وعن هذا أخذ جماعة من بينهم تيرنو ممد بوكر كان في كيهيدي.

راجع في ترجمته: المجموعة الكبرى الشاملة 93/2 ترجمة 236.

4- الطالب جدو العلوي:

قال عنه في كشف الحجاب :العالم الذي ضربت أكباد الإبل لاقتباس الأنوار من مشكاته وشاعت في جميع الأقطار في زمانه فضائله الدالة على علو مقامه الجهبذ الكبير والقدوة الشهير قاضي شنقيط وإمامها.....364

قال عنه في المنية:

والعلـــوي حـــبر شـــنقيط العلـــم الطالـــب العلامـــة البحـــر الخضـــم

لم أعثر على ذكر لتاريخ وفاته عند جميع من تر جم له لكنه مدفون في شنقيط وقبره معروف وقد زرته مرارا لله الحمد. ويذكر له سند في نيجريا.

5-الشيخ محمد الحافظ بن المختار لحبيب العلوي :

وهو الذي تم الإنتشار الفعلي للطريقة التجانية على يده وستأتي ترجمته.

وقد ذكرت بعض المراجع رجلا سادسا اسمه عثمان الفلاني ولكن خبره لم يتأكد عندنا. ولعل الذي ذكره من تلامذة الشيخ إلتبس عليه مع آخر يدعى عثمان الفلاني وهو من تلامذة الشيخ محمد الحافظ.

وقد استقبل أهل بلاد شنقيط بحفاوة بالغة الطريقة الجديدة فاعتنقها الكثير منهم ووجدوا فيها غذاءهم الروحي وضالتهم المنشودة، فألفوا فيها الكتب ونظموا

القصائد في مختلف البحور، وكانت لهم معها صولات وجولات حتى تسمت في مدينة ولاته التاريخية بطريقة العلماء، إذ لم يكن يأخذها من أهل هذه المدينة إلا من بلغ مرحلة متقدمة من العلم.

ورغم انتشار هذه الطريقة المتسع وما تحمله من تعاليم روحية عميقة فقد أثارت بعض المسائل فيها أسئلة من بعض العلماء سرعان ما تطورت إلى مساجلات علمية استمرت طيلة القرنين الماضيين. ولقد تكونت من ردود التجانيين على المنكرين مادة علمية ضخمة و مهمة.

ولاشك أن أغلب العلماء قد سالمها وإن لم يأخذوها لم ينكروا على الآخذين لها. من هؤلاء

"شيخ الإسلام حرمة بن عبد الجليل والعلامة محمد مولود بن احمد الجواد مما حدا بالبعض أن يفحم من أنكر عليها بإقرار هذين الشيخين بالسكوت لأنهما لا ينبغي لهما أن يقرا أحدا على باطل وفي ذالك يقول القائل:

إن أمـــرا قـــد أحجـــم الحـــبر عنـــه نجـــل عبـــد الجليـــل وابـــن الجـــواد

لجـــــدير أن لا تكـــــر إليـــــه كيـــف كـــر البغـــال بعـــد الجيـــاد

كما أن هناك علماء من غير أصحاب هذه الطريقة دافعوا عنها وعن شيخها كالشيخ أحمدو بمب مؤسس الطريقة المريدية، والشيخ سيدي المختار بن عبد الجليل وهو أحد مشائخ الطريقة القادرية، والشيخ محمد سالم بن المختار بن آلما وهو أحد مشائخ الطريقة الناصرية الشاذلية الذي يقول:

مـــالي بســـطوة أحمـــد التجـــاني حـــتى أكـــذب مـــا يقـــول يـــدان

أني أكـــذب طـــود علـــم شـــامخا ظهـــرت كرامتـــه بهـــي الشـــان

إلى أن يقول:

شـــيخ إمـــام كامـــل متـــيقن حـــاو علـــوم الفـــتح والعرفـــان

السند الحافظي:

نسبة إلى العالم العامل والولي الكامل والعارف الواصل ذو المعرفة والتمكين. والرسوخ فى مقامات اليقين المربى بحاله وهمته الموصل إلى الله تعالى بلحظته الجامع بين الشريعة والحقيقة.الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن احبيب العلوي.

لم تحدد لنا المصادر تاريخ ميلاده لكن النقش الموجود عند ضريحه ذكر فيه أنه عاش73سنة وقد أجمعت المصادر أنه توفي سنة 1247هـ وعليه يكون تاريخ ميلاده سنة1174هـ. كما لم تذكر المصادر كذالك مكان ميلاده والأرجح عندنا أن يكون فى معاقل قبيلة تاشدبيت جنوب ولاية اترارزة. فجدته التاشدبيتية هي التى تولت تربيته. وقد ذكر العلامة محمدى بن سيدي عبد الله الملقب بدى فى نزهة المستمع واللآفظ فى مناقب الشيخ محمد الحافظ أنه قام لهذه الجدة مقام الأبناء والآباء.كما ذكر أن الأرض التى حبس فيها الشيخ محمد الحافظ نفسه على جدته كانت وخيمة كثيرة الأمراض وهي أرض الكبلة ووالده وإخوته بالساحل وفيه ما شئت من دين ودنيا.

حفظ الشيخ محمد الحافظ القرآن وهو دون السابعة من العمر. وأخذ عن جدته الجزء الأول من مختصر خليل وألفية بن مالك وحكم ابن عطاء الله. وكان يلقب فى صغره بالمتطهر لملازمته الطهارة. توفيت جدته وقد شب. ثم ارتحل بعد وفاتها إلى عشيرته واشتغل بالعلم فوجد أقرانه قد سبقوه بمدة مديدة وسنين عديدة فزاحمهم بهمة تفلق الصخر وتسرب البحر والجواد ذو السبق يلحق. فقرأ النحو على سيدى عبد الله بن احمدان فى مدة يسيرة.كما قرأ على كل من العلامة حرمة بن عبد الجليل والعلامة سيدى عبد الله بن الفغ سيد أحمد. فحوى علمهم وشمر عن ساق الجد متوجها إلى خاتمة المجتهدين وأحد المجددين سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم، وكان من أجل أشياخه عنده وأعظمهم منة عليه، خدمه خدمة جليلة ونال عنده حظوة عظيمة، أخذ عنه علم الحديث رواية ودراية، وعلم البيان والأصول وغير ذالك من العلوم النافعة.

وقد ذكر بدي بن سيدينا في كتابه الآنف الذكر أن سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم نظم منظومته في الأصول (مراقي السعود) في لوح الشيخ محمد الحافظ، ولعل هذا من الأسباب التي كتب الله بها القبول لهذه المنظومة إضافة إلى إخلاص نية صاحبها وصلاحه فما اختار لوح الشيخ محمد الحافظ إلا لأمر.

وبعد عشر سنوات قضاها مع شيخه سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم بتكانت ارتحل الشيخ محمد الحافظ بنية الحج والبحث عن شيخ تربية قيل إن ذالك تم بأمر من سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم فقادته العناية الربانية والقسمة الأزلية إلى قطب الأولياء وختم الأصفياء صاحب السر المصون والعلم المكنون سيدى أحمد التجانى رضي الله عنه فصحبه ثلاث سنين حضر خلالها الإملاءات الأخيرة لجواهر المعانى. ونال مكانة سامية وعناية فائقة من شيخه، فقد أمه في الصلاة، وشهد له بأنه من أهل المقامات.

وبعد أن أروى ظمأه وملأ أوعيته وجرابه مما حبا الله به شيخه من علوم وأسرار وأنوار وفيوضات أذن له فى الرجوع إلى بلاده وأجازه، لكن المريد طلب من شيخه أن يوصيه. فقال له: "لا تظهر حتى يظهرك الله". وعندما غادره قال الشيخ سيدي أحمد التجاني للحضور: "وما محمد الحافظ إلا مزنة أرسلها الله إلى أهل المغرب".

وبعد رجوع الشيخ محمد الحافظ إلى عشيرته اجتهد في تطبيق وصية شيخه فبالغ في التكتم على أمره ولم يظهر للناس إلا ما هو فيه من التبحر في العلم الظاهر، ولذا انكب عليه طلبة العلم من أبناء عشيرته ينهلون من معينه.

وقد استمر على تلك الحال حتى قدم عليه أحد الشيوخ الأجلاء، والأرجح أنه محمذن بن ببانا وقيل هو يوسف بن المختار، فأجله الشيخ محمد الحافظ وقام له عن فراشه ولكن الشيخ القادم رفض الجلوس على الفراش وقال للشيخ محمد الحافظ: أتدرى الذي جاء بي إليك؟ قال له الشيخ محمد الحافظ لا. فقال محمذن بن ببانا جئتك أريد أن تعطيني من الأمانة التى قدمت بها من الشمال. فأجابه الشيخ محمد الحافظ لقد قدمت ببعض الكتب وبشيء من ماء زمزم وكل ما تريد من

ذالك فهو لك. فقال له محمذن دعنى من كل ذالك إنما جئتك أريد ورد سيدى أحمد التجانى. فعلم الشيخ محمد الحافظ أن الله عز وجل قد أذن للطريقة التجانية في الظهور على يده في هذه البلاد، فلقنه ورد الشيخ سيدى أحمد التجانى ومباشرة بعد هذه الحادثة بدأ ورد التجانية ينتشر فلم يبت أهل بيت من ذالك الحي تلك الليلة إلا وفيهم من يتلو صلاة الفاتح. وبهذا الشكل شاع خبر الطريقة الجديدة وانتشرت أورادها في أسرع ما يكون كانتشار النار في الهشيم.

وكان ممن أخذ عنه في هذ المجلس أو قريبا منه الولي الصالح صاحب الكرامات والخوارق العابد الناسك سيدي محمد الحنفي بن العباس حرازمي السند الحافظي الذي قال عنه الشيخ محمد الحافظ إنه لا تصل منفعة منه لأحد إلا بواسطته كما ذكر أحمد بن محم في كتابه روض شمائل أهل الحقيقة في التعريف بأكابر الطريقة.

وكان من أوائل من أخذ عنه كذالك خليفته وصهره حسان الطريقة محمدي بن سيدي عبد الله الملقب "بدي" الذي قال عنه سيدي العربي بن السائح في البغية: " العلامة الأوحد الفاضل الأمجد أبو عبد الله سيدي محمدي الملقب بالخليفة لقيامه بالخلافة في إعطاء الطريقة بعد وفاة شيخه سيدي محمد الحافظ رضي الله عنه وله خمسة آباء متتابعين كل واحد منهم يعد من أعلم أهل زمانه".

ولقد واجه المنكرين أقوى مواجهة فأدحض شبههم وفندها وبين بطلانها ومدح الشيخ محمد الحافظ بقصائد كثيرة بين فيها الكثير من أحواله وخصوصياته، وبلغت الطريقة في فترة خلافته أوج ازدهارها ثم تنازل لابن شيخه الشيخ محمد الحافظ عن الخلافة عندما رآه أهلا لها وقال في ذالك قولته المشورة "ها نحن نرد الخير إلى مصدره".

وجاء الولي الصالح الذي تضرب بولايته الأمثال الناسك الفاضل سيدي مولود فال اليعقوبى ليعطى لهذا الإنتشار بعدا أوسع، فأخذ بدوره الطريقة عن الشيخ محمد الحافظ وقدمه فيها وتزوج أخته.

وكان سيدى مولود فال صاحب تجوال وعلاقات واسعة جعلته يعد من أبرز الناشرين لهذه الطريقة جنوب النهر وفي بلاد السودان.

ففى أحد أسفاره تلك إلى فوتا تورو التقى بالسيد عبد الكريم الناقل وأعطاه الورد وقد أعطى هذا الأخير الورد بدوره للشيخ عمر الفوتى كما نص على ذلك الشيخ عمر الفوتى نفسه في كتابه الرماح. وعن طريق هذا الأخير انتشرت الطريقة في عموم غرب إفريقيا .

وتوجد أسانيد حافظية في السنغال متصلة بالسيد عبد الكريم لا تمر بالشيخ عمر الفوتى وكان بعضها موضوعا لدبلوم دراسات معمقة نوقشت في قسم اللغة العربية التابع لكلية الآداب بجامعة دكار وقد اطلعت عليها ونصت على أن السيد عبد الكريم المذكور أخذ عنه محمد هامي بابا المشهور بالمهدي وعن هذا الأخير أخذ الشيخ أحمدو به وعنه أخذ الشيخ أحمد أندكسك مؤسس تينابا.

ولم يقتصر نشر سيدى مولود فال للطريقة التجانية على دول الجوار فحسب بل تعداها إلى نيجيريا والسودان والحجاز.

توفي الشيخ محمد الحافظ سنة 1247 هـ في صحراء آمشتيل بمكان يعرف الآن ب "انفنى"وقد قيض الله لهذا المكان الشيخ محمد المختار بن دهاه الذي أسس فيه قرية تتوفر على الماء الشروب وعلى مسجد يعتبر الآن معلما حضاريا في قلب تلك الصحراء تقام فيه الصلوات الخمس ووظائف الخير وفتح صدره وبيته للزوار القادمين إلى هذا الضريح من شتى بقاع العالم.

وتمثل القرى التي أسس الشيخ محمد المختار ولد دهاه على ضفتي نهر السنغال والتلامذة الذين استقطب من مختلف الأعراق، والوشائج التي ربط بينهم، إنجازات واضحة وجليلة في نشر الطريقة التجانية بين شعوب حوض هذا النهر والدعوة إلى تآخيهم وإقناعهم برابطة الأخوة في الدين، ثم في النسب، ثم في الجوار.

وإضافة إلى هذه الأسانيد توجد أسانيد أخرى تتصل بأبناء وأحفاد الشيخ التجاني رضي الله عنه من أهمها سند الإمام الكبير سيدي محمد الحبيب

بن سيدي محمود بن سيدي البشير بن سيدي محمد الحبيب بن الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه.

والسيد محمد الحبيب يعتبر أحد مجددي الطريقة التجانية في هذا القطر فقد زادها انتشارا وأعطاها دفعا سواء برحلاته وتوجيهاته أو بسكنه في المنطقة وثباته بها، فأصل فقهها وزادها قوة وقدرة على استيعاب مختلف فئات المجتمع، وحمل الراية من بعده نجله زين العادين وسار على منواله حذو النعل بالنعل. وها هو حالها اليوم مع الخليفة عبد المطلب بن السيد محمد الحبيب (مد الله في عمره) الذي تابع حمل المشعل دعوة وتفقيها وتسليكا وتربية.

السند العمري:

يعد الشيخ عمر بن سعيد أحد أكبر خلفاء الطريقة التجانية في غرب إفريقيا على الإطلاق. ومن أبرز مشائخ التجانية. وكان كما قال وبحق عن نفسه مجتهدا في علوم الشريعة وخليفة في علوم الحقيقة. فقد درس على والده ومحيطه الأقرب حتى برز في علوم اللغة والشرع. وتشهد مؤلفاته ودروسه للطلبة بعلو كعبه في شتى فنون العلم وإن كان جانبا التصوف والسياسة الشرعية أخذا من شهرته النصيب الأوفر.

فهذا الرجل الذي نشأ في وسط قادري أخذ الطريقة التجانية عن شيخه عبد الكريم الناقل وذلك عن شيخه سيدي مولود فال، ثم جدد أخذ الطريقة في الحجاز عندما وصلها للحج على أحد أكبر أساطين الطريقة التجانية وأبرز تلامذة مؤسسها: سيدي محمد الغالي. وبعد فترة قضاها الشيخ عمر مع هذا الأخير ما كان منه إلا أن أذن له في التصدر للتسليك والتربية وعينه خليفة عاما للتجانية في منطقة غرب إفريقيا .

وعن الشيخ عمر أخذ جماعات كثيرون من أبرزهم ألفا مايرو الذي يعد الواسطة بينه وبين الشيخ الخليفة العام للطريقة التجانية في غرب إفريقيا الحاج مالك سي. وقد أخذ عن الحاج مالك هذا إضافة إلى أبنائه جمع غفير من أبرزهم

أحمد بارو الذي قدم جمعا غفيرا من بينهم محمد سعيد به وهو أحد أعلام التجانية المعاصرين في منطقة تامبا كوندا بالسنغال.

السند السائحي:

يرجع هذا السند إلى العارف الذي جرت ينابيع المعارف من صدره البحر المتلاطمة أمواج علمه وسره الولي الشهير والقدوة الكبير العار ف بالله والدال عليه في سره ونجواه سيدي محمد العربي بن السائح الشرقي العمري نفعنا الله ببركاته ومنحنا من عظيم نفحاته.

لقد كان هذا الشيخ من العلماء العاملين، والأولياء الكاملين، والعارفين الواصلين، والهادين المهتدين، والراشدين المرشدين، جعله الله من الذين جمع فيهم العلوم اللدنية، واللطائف السنية، والكرامات الظاهرة، والمناقب الفاخرة، حتى شهد له بالفتح الأكبر أعداؤه. وهو أحد خلفاء سيدنا رضي الله عنه الذين ربح على أيديهم خلق كثير في هذه الطريقة وفتح بهم كنوز الأسرار والحقيقة.

وقد أخذ عن عدد كبير من مقدمي الشيخ التجاني رضي الله عنه الذين أخذوا عنه مشافهة وكانوا يقيمون بالمغرب وكاتب من كان منهم خارجه كالخليفة سيدي الحاج علي التماسيني ت 1260هـ الذي أجازه كتابة.

وفي هذا الشيخ صاحب زاوية باب العلو يقول محمد فال بن بابه العلوي المشهور باباه:

يـا قاصـدا للحمـى حمـى الثغـور ألا ... أصـخ هـديت أفـدك الـرأي والنظـرا

إذا خرجـت مـن الـوادي وراء سـلا ... فسـر قلـيلا وخـل الـدور ويـك ورا

واصـعد هـديت إلى ذاك العلـو وقـف ... ممتعـا في ربـاه السـمع والبصـرا

لولا زكـام عـرا مـا إن شـعرت بـه ... رأيت وجـه الثـرى مـن عرفـه عطـرا

فقف به معجبـا بـالروض كيـف زهـا ... والوبل كيف همى والبحـر كيـف جـرى

تلـف الجـواهر بـالعبرين بـارزة ... والـدر يقـذف منظومـا ومنتثـرا

وثم آخـــــر مكنـــــون بلجتـــــه مـــن أحســـن الغـــوص في تيـــاره ظفـــرا
فاعقـــل قلوصـــك واعقرهـــا بســـاحته فـــإن عـــزة فيـــه إن دخلـــت تـــرى
ولا تصـــد غـــير مـــا تحمـــي خمائلـــه فالصـــيد أجمـــع فيـــه لا بجـــوف فـــرا
وإن تكـــن فائقـــا فيـــأي مكرمـــة فـــذا النعـــام تـــرى فـــأطرقن كـــرا
وإن يكـــن لـــك شمـــع تستضـــيئ بـــه فأطفـــه فشـــعاع الشـــمس قـــد ظهـــرا
وإن تكـــن خائفـــا إمـــا حللـــت بـــه فـــأمن فـــإن بـــه للملتجـــي وزرا

ويعتبر العلامة محمد فال بن باب بن أحمد بيب العلوي الناشر الأول للسند السائحي في ربوع بلاد شنقيط وهو إمام حجة، مرب نفاع، فقيه أصولي، طبيب ماهر.

ولد في الضاحية الشمالية الغربية من بحيرة اركيز بأرض الكبلة بمكان يعرف الآن (بوعكال) أخذ الطريقة التجانية عن العلامة أحمد بن بدي وسنه إذ ذاك دون العشرين فمكث في صحبته عشرين سنة يربيه ويتهذب على يديه، وبعد هذه المدة أجازه في تلقين الأوراد وأذن له في التصدر لإرشاد الخلق.

وفي سنة 1306هـ سافر في رحلته المشرقية لتأدية مناسك الحج والزيارة ومر في عودته بالمغرب ومكث فيه شهورا حظي فيها بزيارة ضريح الشيخ أحمد التجاني رضي الله عنه.

ومن فاس رجع إلى رباط الفتح ملقيا عصى تسياره في حضرة الفقيه الأجل، أوحد أهل زمانه في حل مشكلات العلوم العقلية والنقلية سيدي العربي بن السائح العمري الذي تلقاه ببالغ الترحيب، وخصه من بين الواردين إليه بالتقريب، وألقى إليه ما لا يلقي إلى غيره، وأجازه إجازة عامة مطلقة. وتوطدت علاقة محمد فال خلال هذه المدة بأكابر تلامذته، ولما عزم على العودة إلى بلاده قال محمد فال يصف طيب مقامه في جواره وغبطته به:

هـــذا مقـــام لا يمـــل بـــه الشـــوى يســـلي عـــن الأهلـــين والأوطـــان

مـــن ضـــل فيـــه ركابـــه مهمـــا يجـــد تمـــرر عليـــه حـــلاوة الوجـــدان

وهكذا رجع محمد فال بن باب إلى بلاده ومسقط رأسه، وتفرغ لنشر العلم ومعالجة المرضى وتربية المريدين.

وقد أعطى محمد فال بن بابه بهذا السند الجديد للطريقة التجانية دفعا جديدا في بلاد شنقيط وقدم فيه ــ كما ذكر الدكتور يحيى بن البراء في كتابه المجموعة الكبرى الشاملة 1/ 350 ــ عدة مريدين وهم: ابنه عبد الله، وسيدي بن محمد، وعيشة بنت ببكر بن احجاب، والكريم بن محمذن بن ابامين، وأخوه المختار الأربعة من بني ديمان ومحمد بن ابراهيم التاكنيتي، ومحمذن لولي بن يوسف العلوي ومحمد عبد الله بن اغشممت المجلسي.

وقد خلف محمد فال في حضرته ابنه عبد الله الذي يعتبر أبرز ناشري هذا السند.وقد قدم عبد الله هذا مجموعة منها:ابنه وخليفته أحمد، وابنه محمد فال(اباه)، ومحمد المختار بن دهاه الثلاثة من العلويين، وببكر بن عمر الديماني، ومحمد محمود بن محمد النابغة التاكنيتي.

ولا خفاء أن محمد فال كان من أكابر المشائخ المرشدين الدالين على الله بالحال والمقال، ومن عقلاء الرجال، موصوفا بالحصافة والرزانة، متحليا بالوقار، كثير الصمت، حليما صبورا ينطق بالحكمة في شعره ونثره ويزن الأشياء بعقله، ويقدر الأمور بعواقبها، نير البصيرة صادق الفراسة، يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها.

وهو الذي يقول في شعره:

فطوبي لمـــن صـــان اللســـان عـــن الخـــنى ولم يـــك في غـــير المهـــم بلافـــظ

فـــذو الشـــيب ذكـــر الله نشـــر كلامـــه ومنظومـــه في العلـــم أو في المـــواعظ

السند الحموي:

لم يقتصر نشر الطريقة في بلاد شنقيط على السند الحافظي فقط بل كانت هناك رجالات تحمل أسانيد أخرى قامت بجهود مشكورة في نشر هذه الطريقة ونفع الناس بها تثقيفا وتربية روحية. من بين هذه الشخصيات سيدي الشريف أحمد بن حماه الله التيشيتي وهو شيخ كبير طار صيته في سائر الأقطار، وتفجرت من صدره ينابيع الأسرار وكان ذا سر باهر، وفتح ظاهر، فضلا عن ما عرف عنه من الجاذبية وظهور بوارق البركة والكرامة، فهو واسطة عقد أهل الصلاح، ومفتاح الخير والنجاح، المجاهد الصامد الذي لم يعرف منه خصومه لينا ولا غلظة في غير حق.

فقد أخذ هذا الشيخ الورد عن سيدي محمد بن عبد الله الأخضر وذلك أخذ عن سيدي الطاهر بوطيبه التلمساني الذي يعد من أكابر تلامذة الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه وأرضاه.

وقد أخذ عن الشيخ أحمد حماه الله جم غفير، وانتشرت الطريقة على يده انتشارا منقطع النظير، وتغلغلت بالغ التغلغل في أكناف غرب القارة حتى تخوم الغابة الإستوائية.

السند الإبراهيمي:

نسبة إلى شيخ الإسلام الحاج إبراهيم انياس الكولخي، وهو في الحقيقة جزء من السند الحافظي كما تنبئ عن ذالك أسانيد هذا الشيخ التي أورد في كتابه كاشف الإلباس عن فيضة الختم أبي العباس، إلا أن عطاءه وكثرة انتشار مريديه ووجود أسانيد أخرى لديه جعلتنا نفرده بالذكر ونخصه بالتعريف.

ويعتبر شيخ الإسلام الحاج إبراهيم انياس ظاهرة من فرادات الدهر التي قلما يتكرر مثلها، فهو العالم المتبحر، والداعية غير الهياب ولا الخائف، والمربي الدافق المدد، والمحب المحترق الحشى، وقد كان لهذا الرجل صولات في الدعوة إلى الله طالت شعوبا لم يمسها الإسلام. وأحيت معالم الدين في ربوع كاد يندثر فيها،

فأصبح الذكر والإستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يدوي في مناكب الأرض وبين شعوب مختلف القارات.

ولا شك أن هذه الصحوة في الوعي الديني وفي المسار الروحي التي كان هذا الشيخ رائدها ومددها قد جمعت شعوبا لم تكن تجتمع من قبل وبددت الكثير من الأحكام القيمية القبلية التي كثيرا ما يطلقها شعب ما على غيره من الشعوب.

ولا شك أن الشيخ إبراهيم مثل بعثا وتجديدا في الدين كبيرين حيث حرص على الرجوع به إلى أصوله القطعية، وعمل الجهدَ المستطاعَ على جمع شتات المسلمين على كلمة سواء يحتكمون إليها ويعتصمون بها.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه كان ناشطا في إنشاء رابطة العالم الإسلامي وعضوا مؤسسا من أعضائها.

ونظرة إلى مريدي هذا الشيخ في موريتانيا والسنغال ونيجيريا والسودان وغانا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها تكفي لتقييم عمل هذه الشخصية العظيمة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الطريقة التجانية.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أنبه على أن الطريقة التجانية لها خصوصيتها التي جعلت منها منهجا صوفيا يختلف كثيرا عن الطرق الأخرى. فقد ابتعدت عن نخبوية الشاذلية في بلاد شنقيط التي تكاد تجعلها حكرا على أهل العلم، فنأى بها ذلك من أن تكون وسيلة ترقية اجتماعية سريعة وهذا ما كاد يقطعها عن المجتمع. كما فارقتها أيضا في شكل ممارسة التدين عند أصحابها التي تتسم بالإنفرادية والتكتم، فكانت التجانية عكس ذلك تركز على البعد الجماعي للممارسة الدينية.

ومن خصائص الطريقة التجانية أنها استطاعت أن تذهب بالتصوف إلى أعماق المجتمع فتحدث ظاهرة تدينية شعبية يستوي فيها الأمي والعالم والذكر والأنثى.

كما تلافت أيضا ما عرف في بعض الطرق من نظام في التسليك يتسم بقدر كبير من الجهد منعها من أن تتسع كثيرا خاصة في صفوف النساء اللآئي كن عنصر حيوية ونقل سريع للطريقة التجانية.

لذا ظهرت نساء مشهورات من أصحاب الطريقة التجانية كان لهن شأن بارز في الحياة الصوفية والثقافية في المنطقة. منهن آمنة (أت) بنت الخال الشقروية ،و بنت الوليد السالم ، وبنت بليه، وعيشة بنت احجاب، فلكل واحدة منهن شعر صوفي يرشح بالعرفان.

ولا يسعني قبل أن أنهي هذه المحاضرة إلا أن أشيد بدور العرش العلوي المجيد في رعاية هذه الطريقة وحمايتها والسعي في محافظتها على نقائها كما جاء بها صاحبها وذلك منذ عهد المولى سليمان إلى الآن:

وعهـــد ســـليمان الخليفـــة بينـــها فلست لذاك العهـد مـا عشـت ناسـيا

ولا أدل على ذلك من الظهير الملكي الذي تكرم بإصداره صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله والذي أسند بموجبه القوس إلى باريها، أسند تسيير شؤون الزوايا في هذه الديار المحروسة إلى حفيد الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه السيد محمد الكبير التجاني، الذي نرجو له من الله التوفيق والسداد والنصر والعون على القيام بأعباء هذه المهمة النبيلة.

وحاضـــــرنا والحمـــــد لله هـــــؤه يجـــدد مـــا مـــن عهـــدنا مـــر ماضـــيا

علـــى يـــد أســـتاذ ومفـــت وقائـــد وقـــرن نضـــال لا يبـــاري مباريـــا

إعداد الدكتور :

محمد الحنفي محمد المختار دهاه